

## رحلة إلى الشهيد عمر المختار

استعرضنا في الحلقة السابقة التراث الفكري للاستاذ محمد أسد رحمه الله وقد ابتدأنا بكتابة الطريق إلى مكة. وبعد استعراض سريع للكتاب المذكور نقلنا منه رواية الحوادث المباشرة التي سبقت اعتناق المؤلف للإسلام. وفي هذه الحلقة سننقل فقرات من رواية المؤلف لرحلته إلى ليبيا سنة ١٩٣١ حيث قابل عمر المختار قبل استشهاده بأشهر قليلة. وقد اخترنا هذه المواقف لأنها تذكرنا بتلك الحقبة من التاريخ التي ربما نكون قد نسيناها بأسرع مما يجب لأنها تذكرنا بالموقف المتكرر للغرب الأوروبي في مواجهة خصمه عندما يكون أعزلاً. إن ضمائر الأوروبيين لم تمنعهم يوماً من (التدمير الشامل) لخصمهم الأعزل وهذا ما يسمونه اليوم بالشرعية الدولية والنظام العالمي الجديد. وأخيراً فإنها تذكرنا بما لا يجب أن نساها أمتنا وهو أن للمؤمن عندما تشير الحسابات المادية إلى أنه قد لا ينتصر في معركته مع القوة الغاشمة التي تريد أن تسلبه شخصيته وعزته ورسالته، إن له موقفاً آخر ليس هو موقف استجداء الاستسلام الدليل بل موقف المقاومة الصابرة حتى النهاية فأما حياة عزيزة أو موت كريم. ورب عيش أخف منه الحمام. وكما عودنا محمد أسد فقد جمع في روايته لرحلته إلى برقة بين النفس المتتابع للمغامرة الشيقة وبين التحليل الموضوعي الدقيق.

وعن الطريقة السنوسية يقول محمد أسد، (لقد كان العالم الجزائري العظيم محمد بن علي السنوسي هو الذي خطرت له في النصف الأول من القرن التاسع عشر فكرة طريقة إسلامية يمكن أن تعبد الطريق إلى إقامة دولة إسلامية بالمعنى الصحيح. وبعد سنوات من التجوال والدرس في كثير من الأقطار العربية أسس محمد بن علي زاويته الأولى في جبل أبو قبيس في مكة. وسريعاً ما اكتسب اتباعاً وأنصاراً كثيرين من بدو الحجاز. إلا أنه لم يبق في مكة بل عاد

إلى شمال أفريقيا ليستقر آخر الأمر في جغوب، وهي واحة في الصحراء بين برقة ومصر. ومنها انتشرت رسالته كالبرق في جميع أنحاء ليبيا وتعدتها إلى أماكن قسوة أخرى. وعندما مات في سنة ١٨٥٩ كان السنوسيون يسيطرون على دولة واسعة تمتد من شواطئ البحر الأبيض المتوسط إلى أفريقيا الاستوائية وإلى بلاد الطوارق في صحراء الجزائر. إن لفظ الدولة لا تصف بالضبط هذا الابداع الفذ ذلك أن إمام السنوسية لم يهدف مطلقاً إلى إقامة حكم شخصي لنفسه أو لأولاده وأحفاده من بعده، بل إن ما أراده كان أن يعد أساساً نظامياً لبعث الإسلام بعثاً أدبياً اجتماعياً سياسياً. فمن الزوايا الكثيرة التي انتشرت في جميع أنحاء أفريقيا الشمالية حمل السنوسيون رسالتهم إلى أقصى القبائل وأحدثوا في عقود قليلة تبديلاً كاد يكون معجزاً بين العرب والبربر سواء بسواء فزال الفوضى القديمة بين القبائل وأصبح مقاتلو الصحراء الذين كانوا فيما مضى متمردين متحلين بروح تعاونية لم تعرف بينهم من قبل. وفي الزوايا تلقى أودلاهم الثقافة لا في تعاليم الإسلام فحسب بل في كثير من الصناعات والفنون العلمية التي كان البدو الرحل ينظرون إليها سابقاً نظرة ازدراء وإباء. لقد حملوا على أن يحفروا آباراً أكثر وأفضل في مناطق ظلت جرداء طوال قرون، وأخذت المزارع الناجمة بإرشاد السنوسي تظلل الصحراء. وبالاختصار فإن نفوذ الطريقة السنوسية كان دافعاً قوياً إلى المدنية والتقدم في حين أن تمسكها بسيرة أهل السلف الصالح رفع المقاييس الأدبية في المجتمع الجديد إلى أعلى كثيراً. ولكن فترة السلم هذه ما لبثت أن اضطرت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر عندما شرعت فرنسا في تقدمها جنوباً من الجزائر إلى أفريقيا الاستوائية وفي احتلالها خطوة خطوة. فدفاعاً عن الحرية أجبر ابن المؤسس وخليفته محمد المهدي على امتشاق السيف، ولم يتمكن بعد ذلك من أن يضعه أبداً. وعندما مات محمد المهدي سنة ١٩٠٢ خلفه ابن اخته سيد أحمد في قيادة الطريقة. وعندما غزا الإيطاليون طرابلس الغرب وبرقة سنة ١٩١١ وجد نفسه يحارب على جبهتين فأكرهه هذا الضغط الجديد الأكثر مباشرة على أن يحول انتباهه الرئيسي إلى الشمال. فإلى جانب الأتراك أولاً ثم وحده بعد أن ترك هؤلاء ليبيا حارب السيد أحمد ومجاهدوه السنوسيون ضد الغزاة بكثير من النجاح لم يستطع الإيطاليون إزاءه رغم تفوقهم

في العدد والعدة أن يحتفظوا سوى بعدد قليل من الثغور.

وفي سنة ١٩١٥ دخلت تركيا الحرب العظمى إلى جانب ألمانيا وطلب السلطان العثماني إلى إمام السنوسية أن يساعد الأتراك بمهاجمة البريطانيين في مصر. ومنذ ذلك الحين أجبر السيد أحمد على أن يحارب على ثلاث جبهات وعندما شن البريطانيون هجوماً في الصحراء الغربية قطعوا الطريق الوحيد الذي كانت المؤن والذخائر تندفق منه على المجاهدين ولم تستطع داخلية برقة أن تطعم وحدها شعباً منهمكاً بنضال فيه حياته وموته. وفي سنة ١٩١٧ سافر السيد أحمد إلى اسطنبول بهدف الحصول على مساعدات وقيل أن ييحر عهد بقيادة الطريقة في برقة إلى ابن عمه محمد ادريس (الذي أصبح ملك ليبيا ١٩٥١) وحيث أن محمد ادريس كان ذا استعداد سلمي أكثر من السيد أحمد، فقد حاول حالاً أن يصالح البريطانيين والإيطاليين فوافق البريطانيون وضغطوا على الإيطاليين كي يحذوا حذوهم فاعترفت الحكومة الإيطالية رسمياً بمحمد ادريس أميراً للسنوسيين فاستطاع أن يحتفظ بشبه استقلال مترعز في داخلية برقة حتى عام ١٩٢٢ إلا أنه عندما اتضح أن الإيطاليين لم يكونوا ينون في الحقيقة أن يتقيدوا باتفاقاتهم غادر محمد ادريس البلاد محتجاً إلى مصر في أوائل سنة ١٩٢٣ بعد أن عهد بقيادة السنوسيين إلى أحد أتباع الطريقة المخلصين القدماء: عمر المختار، وقد حدث ما كان متوقفاً فقد حرق الإيطاليون اتفاقاتهم بعد ذلك مباشرة واستؤنفت الحرب في برقة).

ويتحدث محمد أسد عن عمر المختار فيقول: (عمر المختار أسد برقة ذاك الذي لم تمنعه سنوه السبعون من القتال حتى آخر رمق في سبيل حرية بلاده، لقد كان مدة عشر سنوات متطاولة كالحمة روح مقاومة قومه في صراع يائس ضد الجيوش الإيطالية التي كانت عشرة أضعاف جيشه ومزودة بأحدث الأسلحة والدبابات المصفحة والطائرات والمدافع بينما لم يكن لدى عمر المختار ورجاله أنصاف الجائعين شيء سوى البنادق وبعض الخيول يشنون بها حرب عصابات يائسة في بلد انقلب إلى سجن ضخم كبير).

وعن مهمته في ليبيا يقول محمد أسد: (استدعاني السيد أحمد السنوسي

وكان يقيم في المدينة المنورة وشرح لي صعوبة الأوضاع في بركة وسألني قائلاً: هل تذهب يا محمد إلى بركة بالنيابة عنا فتقف على ما يمكن صنعه للمجاهدين لعلك تستطيع أن ترى الأمور بأجلى مما يراها بنو قومي؟ وتناول السيد أحمد من على أحد الرفوف نسخة من القرآن الكريم وبعد أن وضعها على ركبتيه أمسك بيدي اليمنى بين يديه ووضعها على الكتاب وقال: (أقسم يا محمد بالله الذي يعلم ما في القلوب على أنك ستبقى أميناً للمجاهدين).

ويصف محمد أسد رحلته في المدينة المنورة عبر البحر الأحمر ومصر إلى بركة وأخيراً لقاءه مع عمر المختار: (. . . وما لبث عمر أن جاء على جواد صغير. ساعده أحد رجاله على النزول، ورأيت أنه كان يمشي بصعوبة وقد عرفت بعدئذ أنه كان قد جرح إبان إحدى المناوشات قبل ذلك بعشرة أيام تقريباً. وعلى ضوء القمر المشرق استطعت الآن أن أراه بوضوح، كان رجلاً معتدل القامة قوي البنية ذا لحية قصيرة بيضاء كالثلج تحيط بوجهه الكثيب ذي الخطوط العميقة وكانت عيناه عميقتين ومن الغضون المحيطة بهما كان باستطاعة المرء أن يعرف أنهما كانتا ضاحكتين برأقتين في غير هذه الظروف إلا أنهما لم يكن فيهما الآن شيء غير الظلمة والألم والشجاعة. واقتربت منه لأحييه وشعرت بالقوة التي ضغطت بها يده على يدي. مرحباً بك يا بني، قال ذلك وأخذ يجيل عينيه في متفحصاً. لقد كانت عيني رجل كان الخطر خبزه اليومي. وفرش أحد رجاله حراماً على الأرض. . . فجلس سيدي عمر عليه متثاقلاً وعلى ضوء النار الخافت قرأ سيدي عمر الكتاب الذي حملنيه السيد أحمد إليه ثم التفت إليّ مبتسماً وقال، لقد اطراك السيد أحمد في كتابه، أنت على استعداد لمساعدتنا، ولكنني لا أعلم من أين يمكن أن تأتينا النجدة إلا من الله العلي الكريم. إننا حقاً على وشك أن نبلغ نهاية أجلنا، فقلت: وإذا أمكن تدبر الحصول على المؤن والذخائر من واحة كفرة أفلا يمكن صد الإيطاليين؟ ولم أر في حياتي ابتسامة تدل على ذلك القدر من المرارة واليأس كتلك التي رافقت جواب سيدي عمر: لقد خسرنا كفرة فالإيطاليون قد احتلوها منذ أسوعين وقربني سيدي عمر إليه بلطف وكرر قوله إنك تستطيع أن ترى يا بني أننا قد اقتربنا فعلاً من نهاية أجلنا. ثم أضاف كأنما يجب على السؤال الذي كانت تنطق به عيناى: (إننا نقاتل لأن علينا أن نقاتل

في سبيل ديننا وحریتنا حتی نطرد الغزاة أو نموت نحن وليس لنا أن نختار غیر ذلك. إنَّا لله وإنا إليه راجعون) لقد كان سيدي عمر يعرف أنه لم یکن ینتظر غیر الموت، كان هناك جد عمیق ولكن دونما کبت في صوت سيدي عمر عندما بحث معي النتيجة المحتومة لصراعه الطویل في سبيل الحرية. كان يعرف أنه لم یکن ینتظره إلا الموت. إنه لم یکن یخشی الموت، ولم یسع إليه، ولكنه كذلك لم یحاول أن یتجنبه وإنني لعلی ثقة من أنه حتی لو عرف أي نوع من الموت كان ینتظره لما حاول أن یتجنبه فقد كان یؤمن إیماناً عمیقاً بأن کل إنسان یحمل مصيره بین جنبیه حیثما ذهب ومهما فعل. لم یکن باستطاعة أحد أن ینقذ سيدي عمر. إنه لم یرد أن ینقذ. لقد فضل أن یموت إذا لم یستطع أن ینتصر. لقد عرفت ذلك عندما فارقته).

ویصف محمد أسد الأيام الأخيرة لعمر المختار: (كان سيدي عمر ونفر من رجاله متوغلین في بعض الأراضي التي كانت في قبضة الإيطالیین. وبطريقة ما عرف الإيطالیون بوجوده وسدوا الوادي من الجانبین بعدد کبیر من الرجال، ولم یکن هناك أمل بالهرب ولكن سيدي عمر والمجاهدین دافعوا عن أنفسهم إلى أن لم یبق منهم سواه واثنان آخران وأخيراً سقط جواده من تحته قتیلًا برصاصة بندقية فوق علی الأرض ورجله تحت الجواد المیت بحيث لم یستطع النهوض إلا أن الأسد العجوز استمر في إطلاق النار من بندقيته إلى أن أصابته رصاصة في إحدى یدیه وعندئذ قبضوا علیه وحملوه مکبلاً إلى سلوق حیث أخذ إلى الجنرال غرازیاني الذي سأله، ماذا تقول لو أن الحكومة الإيطالیة رافة کبری منها بك سمحت لك أن تعيش. هل أنت علی استعداد لأن تعد بأنک ستمضي ما تبقى لك من أيام في سلام؟ ولكن سيدي عمر أجاب لن أتوقف عن قتالک وقومک حتی تغادروا بلادی أو أفارق حیاتي وأقسم لك بالله أنه لو لم تكن یدای مغلولتین في هذه اللحظة بالذات إذن لقاتلتک بیدي العزلاء. أنا الشیخ المحطم العجوز. وعندها ضحك غرازیاني وأعطی الأمر بأن یشتق سيدي عمر في سوق سلوق. وهكذا كان. فقد جمع الإيطالیون آلافاً کثیرة من رجال المسلمین ونسائهم من المعسکرات التي كانوا مسجونین فیها وأجبروهم بالقوة علی أن

يشاهدوا شتى قائدهم ، وبعد مئة معركة فقد جاء الموت الذي طالما انتظره عمر المختار).

إلى هنا تنتهي هذه الفقرات التي اقتطفناها من كتاب الطريق إلى مكة لمحمد أسد . وقد نفذ حكم الإعدام شنقاً بالسيد المجاهد عمر المختار في الساعة التاسعة من صباح يوم الأربعاء ٤ جمادى الأولى ١٣٥٠ هجرية الموافق ١٦ سبتمبر ١٩٣١ ميلادية ولسانه وقلبه وحاله يردد أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، وقد رأيت أن أنقل هنا للقارئ أبياتاً من قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقي في رثاء عمر المختار وهي من أصدق مراثيه وأروعها:

ركزوا رفاتك في الرمال لواء يستنهض الوادي صباح مساء  
يا ويحهم نصبوا مناراً من دم يوحى إلى جيل الغد البغضاء  
جرح يصيح على المدى وضحية تتلمس الحرية الحمراء  
يا أيها السيف المجرد في الفلا يكسو السيوف على الزمان مضاء  
خيرت فاخترت المبيت على الطوى لم تبز جاهاً أو تلم ثراء  
إفريقيا مهد الأسود ولحدها ضجت عليك أراجلاً ونساء  
والمسلمون على اختلاف ديارهم لا يملكون مع المصاب عزاء

---

نشرت في جريدة اللواء ٨/٤/١٩٩٢